ركناً من أركان الدِّين في العِلْمِ والعمل، بارعاً في العلوم الأصولية وتحقيق عِلْم العربية، متقناً لمذهب مالك بن أنس، رحمه الله.

وكان من أذكى الأمة قريحةً، وكان ثِقَةً حُجَّة متواضعاً، عفيفاً، كثير الحياء، مُنْصِفاً، محباً لِلعِلْم وأهله، ناشراً له، محتملاً للأذى، صبوراً على البَلْوى. قَدِمَ دمشق مراراً آخرها سنة سبع عشرة، فأقام بها مدرِّساً للمالكية، وشيخاً للمستفيدين عليه في عِلْمَي القراءات والعربية. ثم خَرَجَ هو والشيخ ابن عبد السَّلام بسبب تغيُّرِ الوقت عليهما، فسكنا بمصر، وكان خروجهما من دمشق سنة ثمانٍ وثلاثين وست مئة، وأخبرني[1] صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دُفِنَ خارج الإسكندرية في المَقْبُرة التي بين المنارة والبلد، قريب قبر الشيخ ابن أبي شامة، رحمه الله[1].

ثم دخلت سنةُ سبعٍ وأربعين وست مئة

في خلافة المستعصم. وسُلْطان دمشق الصَّالح أيوب بن الكامل مقيم بها؛ قَدِمَ إليها في أول شعبان من سنة ستٍّ، فأقام بها خمسة أشهر، ورحل منها يوم
١٨٣ الاثنين رابع محرَّم طالباً الدِّيار المِصْرية، وأمر ببناء المنارة الشَّرْقية بالجامع، وهي التي احترقت، فَعُمِرَتْ على ما هي عليه الآن.

وفي صفر وصلت الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ إليها في البحر، ونزلوا على ساحلها من جهة بُرْج دمياط، واستُشْهد من المسلمين جماعة، منهم النجم بن شيخ الإسلام[2].

ودخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائباً للسَّلطنة في عاشر ربيع الأول منها، ونزل بدرب الشَّعارين.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ب).

(٢) في الأصل: شهاب الدين شيخ الإسلام، وفي (ب) ابن شيخ الإسلام، وفي (ك) و(ع) و(س): النجم بن شيخ الإسلام، وهو الموافق لما في «مرآة الزمان» (حوادث ٦٤٧هـ)، وانظر «نزهة الأنام»: ١٨٩.

ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين، ودخول الفرنج ـ خذلهم الله ـ إليها، واستيلائهم على ما كان فيها من المؤنة والإقامة، وجَرَتْ وقعةٌ عظيمة هلك فيها داوية الفرنج.

ثم ورد كتابُ مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول، قرأتُ فيه: وَصَلَ الفرنج في العشرين من صفر، ونزلوا في الحادي والعشرين إلى البر، وفي الثَّاني والعشرين أُخليت دِمْياط ودخلها الفرنج، وهم فيها إلى الآن.

وفي ربيع الآخر توفي العَدْل صفي الدِّين عمر بن محمد بن عبد الوهَّاب، يُعْرف بابن البرادعي، وكان أحدَ مَنْ يروي عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، رحمه الله.

وتوفي فيه أيضاً الشيخ الصّالح إسماعيل، مقدَّم الخدام النبوية.

وجاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة، رحمهم الله.

وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشَّريف عبد الصَّمد الزاهد الحجازي، المقيم بالمسجد الذي كان بين القَصَّاعين والفُسْقار ـ رحمه الله ـ وشهد جِنازته خَلْقٌ كثير، وحُمِلَ على أيدي الرِّجال وأصابعهم، وكان على طريقة حسنة، حضرتُ الصَّلاة عليه بعد الظهر بالجامع، وشيَّعْتُه إلى المقبرة بين باب الجابية وباب الصَّغير، رحمه الله.

وعَبَرَ بسببه الأمير جمالُ الدِّين بباب البريد، وشاهد ما أُحدث من الحوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع، فأمر بإزالته والاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبين، وكان قد أزيل ذلك مرةً في آخر زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم رُدَّ بعدُ، ثم أُزيل هذا الوقت المذكور، والله تعالى يُجْري الخير على يد مَنْ يشاء من عباده.

وفي أواخر السنة شُرِعَ في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البَعْلَبَكِّي المسامت للجسر الأبيض.

وفي ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السُّلْطان الملك الصَّالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب[١]، وأخفي.

ثم أُرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا، وهو الملك المُعَظَّم توران شاه بن أيوب، فتنكَّر، وقَدِمَ مع النجَّابين على زِيِّهم، وعَبَرَ على البلاد، ولم يفطن به ملوكُ الأطراف حوله إلى أنْ وصل عانة، وعدَّى الفُرَات، ودخل البرية، ودخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر رمضان، فنزل بالقلعة، وأقام بها، وأحسن إلى أهلها.

ثم سافر إلى مصر يوم الاثنين في السادس والعشرين من شوال، فوصل إلى المنصورة ثامن عشر ذي القعدة، وبها عسكر المسلمين في قُبَالة الفرنج الذين استولوا على دِمْياط.

وقبل وصول السلطان بأيام ركب الفرنج، وحملوا على المسلمين سَحَراً على غِرَّة، فدهموهم في بيوتهم وخيامهم، وتفرَّقوا في أَزِقَّة المنصورة وبين بيوتها، وأيقظ الله تعالى المسلمين، فاجتمعوا عليهم، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، منها ألف وخمس مئة فارس، ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفساً.

١٨٤ وفيها قتل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[٢]، وهو آخر أخوته موتاً.

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات ٦٤٧هـ)، الحوادث الجامعة: ١٢١، كنز الدرر: ٧/ ٣٧٠، وما بعدها، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٨٧ ـ ١٩٣، العبر للذهبي: ٥/ ١٩٣، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣١، الوافي بالوفيات: ١٠/ ٥٥ ـ ٥٨، تحفة ذوي الألباب: ٢/ ١٤٣ ـ ١٤٩، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٧هـ)، نزهة الأنام: ١٨٦ ـ ١٨٧، السلوك: ج١/ ق٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٣، خطط المقريزي: ٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، ٣/ ٨٩ ـ ٩٠، شفاء القلوب: ٣٦٧ ـ ٣٨٢، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣١٩ ـ ٣٣٨، حسن المحاضرة: ٢/ ٣٤ ـ ٣٥، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٧، ترويح القلوب: ٦٢.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات ٦٤٧هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٠٠ ـ ١٠٢، العبر =

وقتل أيضاً صاحِبُنا الشيخ الفاضل ضياءُ الدِّين محمد بن أبي الحجَّاج[١] ، صاحب ديوان الجيش ـ رحمه الله ـ خَتَمَ الله له بالحُسْنى؛ وهي الشهادة، على ما كان فيه من فَضْلٍ ودينٍ وتواضع، ولم ألق أحداً يعرف عِلْم التَّاريخ مثله، وحصَّل كُتُباً عظيمة، وكانت له هِمَّةٌ عظيمة في تحصيل الكتب والفوائد والفضائل إلى آخر عمره ـ رحمه الله ـ قَدِمَ دمشق مرَّاتٍ في زمان شبيبته وحياة والده، وفي زمان شيخوخته، وكان قدم بغداد، وسمع العلامة تاج الدين الكِنْدي، وأبا حفص عمر بن طَبَرْزد، والقاضي أبا القاسم الحَرَسْتَاني وغيرهم[٢]، وأنشد لنفسه بدمشق ولغيره كذا وكذا[٢].

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين وست مئة

ففي ثاني المحرَّم ـ وهو يوم الأربعاء ـ كَسَرَ السُّلْطانُ المُعَظَّمُ بنُ الصَّالح بن الكامل الفرَنج ـ الذين كانوا استولوا على دمياط وحاصروه بالمنصورة ـ

= للذهبي: ٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥، الوافي بالوفيات: ٢٩/ ٣١٧ ـ ٣٢١، فوات الوفيات: ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨، عيون التواريخ: ٢٠/ ٣٢، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٩٧، البداية والنهاية (وفيات ٦٤٧هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٦٣، شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وقال سبط ابن الجوزي: كان عاقلاً جواداً، وزيراً، خليقاً بالملك، محبوباً إلى الناس، كان له يوم مات ست وستون سنة.

قلت: وانظر ترجمة والده ص ٣٣٥ من الجزء الأول.

(١) له ترجمة في الوافي بالوفيات: ٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩، وقد سلف خبر نزوله بالمدرسة العادلية بدمشق ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ب)، وفي (ك) و(ع) و(س): وأنشدني لنفسه ولغيره كذا وكذا، ينظر في الأوراق المفرقة.

قال إبراهيم عفا الله عنه: قوله: ينظر في الأوراق المفرقة، إما أن يكون من أبي شامة، وقد كان يزيد في كتابه «المذيل» أوراقاً طيارة، أملاً أن ينزّلها في مواضعها في أثناء تبييضه له، وقد مات ـ رحمه الله ـ قبل أن يتمكن من تبييضه، أو من قول الناسخ، وقد رأى الأوراق المفرقة، في الكتاب، فلم يكلف نفسه عناء البحث عنها، ويبدو أن قسماً من هذه الأوراق المفرقة قد ضاع، والله أعلم.